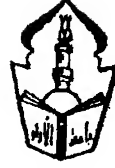
جامعة الأزهر
مركز صالح عبد الله كامل
للاقتصاد الإسلامي



Al-AZHAR UNIVERSITY
S.A. KAMEL CENTER
FOR ISLAMIC ECONOMICS

نـــــدوة

﴿ الجوانب الاقتصادية في حياة الأنبياء عليهم السلام ﴾

يوم السبت ٢٠ صفر ١٤٢٥هـ الموافق ١٠ أبريل ٢٠٠٤م

دروس في الهدى الاقتصادي
من خلال قصة سيدنا آدم عليه السلام

إعـــــداد

الأستاذ الدكتور/ يوسف إبراهيم يوسف

المستشار العلمي
لمركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي
جامعة الأزهر

مدينة نصر – القاهرة – جمهورية مصر العربية
تليفون ٤٠٣٧٥١٤-٢٦١٠٣٠٨ – ٢٦١٠٣١١ – تليفاكس ٢٦١٠٣١٢
Nasr City, Cairo, Egypt, Tel.: 4037514-2610308 - 2610311, TelFax: No. 2610312
www.SAKC.gq.nu E-mail: salehkamel@yahoo.com

أ.د/ يوسف إبراهيم يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾

مقدمة:

أنبياء الله تعالى ورسله، جعلهم سبحانه وتعالى قدوة للبشرية، وأسوة حسنة للخلق، وما جاءت قصصهم في القرآن الكريم، والسنة المطهرة إلا لتكون عبرة لأصحاب العقول، الذين يفطنون إلى ما يستفاد من هذا القصص الحق ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(١).

ومن ثم فإننا سنجد - بلا ريب - في حياة كل نبي، وفيما أوحى الله تعالى إليه، وما مر به من تجارب، في محاولته هداية قومه، إلى صراط الله الواحد ودينه القويم سنجد ما يرشد سلوك البشر ويهدى خطاهم على طريق الحياة الممتد.

سنجد ذلك واضحاً في قصة شعيب عليه السلام، كما نجده في قصة صالح، وقصة هود، ونوح وإبراهيم وموسى ويوسف وعيسى ومحمد صلوات الله عليه وعلى رسل الله أجمعين، لا تخلو قصة نبي وردت في القرآن أو السنة من هداية تقدم للبشرية وتربية تهذب سلوكها، وعظات وعبر تستفيد منها ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّـهُ﴾(٢) وأبو البشر، وأول الرسل(٣)، آدم عليه السلام كغيره من رسل الله الكرام، تقدم لنا قصته العظة والعبرة والهداية والتربية والتعليم والترشيد لمسيرة البشرية منذ أن وجدت، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد خلق الله العظيم آدم بيده، ثم نفخ فيه من روحه، وسواه بشراً وأسكنه الجنة، وأسجد له ملائكته، فسجدوا إلا إبليس أبى، وعهد إليه عهداً، نسيه عليه السلام، وتلقى من ربه كلمات، فتاب عليه وهدى، ثم أهبطه إلى الأرض، ليؤدى المهمة التي خلق من أجلها، وهي الخلافة في الأرض، وليعمرها ومن بعده بنوه، وليعبدوه ويشكروه، محذراً إياهم من غواية عدوهم الذي رفض السجود وأعلن العداء، وتوعدهم بالغواية، وزود آدم بما يحتاج إليه في أداء هذه المهمة، من علم وقدرات، وتدريب على التكليف، ووعده وذريته، بالحياة الطيبة على

---

(١) سورة يوسف ، الآية رقم ١١١.

(٢) سورة آل عمران الآية رقم ٦٢.

(٣) روى ابن حبان في صحيحه (٧٦/٢) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قلت يا رسول الله من كان أولهم؟ قال: آدم: قلت: يا رسول الله، نبي مرسل؟ قال: نعم...

الأرض، إن هم اتبعوا لهدى الذي يأتيهم من ربهم، وأوعدهم ضنك المعيشة إن هم أعرضوا عن هذا الذكر الإلهي.

ولقد كان للجانب الاقتصادي في قصة آدم عليه السلام، نصيباً، إذ نلحظ في مراحل هذه القصة، أن الله تعالى، قد قدم للبشرية في رسالة أبيها آدم، ما يفيدها في كل جوانب الحياة، إذ أنه قد حدد فيها الهدف من خلقهم، وما يطلبه منهم، وحذرهم من عدوهم، وعدو أبويهم، وطالبهم بعدم الاستجابة لغوايته، والاعتصام بحبل الله الذي سيمتد إليهم في كل فترة.

وكما خلق الله تعالى، في صلب آدم جميع بنيه[1] وأخرجهم إلى الوجود في عالم الذر أمام آدم عليه السلام ، أقول كما ضمن الله آدم جميع الخلق، فإنه ضمن رسالته كل الأسس التي تقوم عليها حياتهم، وتصلح بها دنياهم وآخرتهم أي أن البشرية كما خلقت بخلق آدم عليه السلام ، قد أوتيت برسالته إلى بنيه، أسس الهداية، ومقومات الخلافة، ومبادئ العلوم، وأصول التربية، وسنن الله تعالى في الكون والأشياء والأحياء ﴿وعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[2] لقد أجتمع في آدم كل البشر، واجتمعت في رسالته أصول الرسالات.

وسنحاول في اختصار شديد أن نستخلص من قصة أبينا آدم عليه السلام الدروس التي نراها مرشدة لسلوكنا، وهادية لنا إلى الطريق القويم، وأهمها الدروس التالية:

الدرس الأول: الحوار طريق إظهار الحق.

الدرس الثاني: حقيقة وجودنا في الأرض .

الدرس الثالث: العلم أداة تطوير الحياة في المجتمع.

الدرس الرابع: آدم وبداية صناعة الملابس.

الدرس الخامس : الأخلاق السيئة تورد موارد التهلكة.

الدرس السادس: اتباع الشهوات مؤشر لهبوط المجتمع.

الدرس السابع: الحياء خلق فطرى وشعبة من الإيمان.

الدرس الثامن: الأخوة البشرية واجبة الرعاية.

---

(١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ سورة الأعراف الآية رقم ١٧٢. وعن أبن عباس قال: مسح ربك ظهر آدم فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ مواثيقهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى روى مرفوعاً وموقوفاً. أبن كثير قصص الأنبياء طبعة دار المعرفة، ص ٣٠.

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٣١.

الدرس التاسع: السنة الإلهية فيمن يتبع الهدى، وفيمن يعرض عنه.

الخاتمة

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

الدرس الأول

الحوار طريق إظهار الحق

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[1] قبل خلق آدم عليه السلام ، يعرض الله سبحانه على ملائكته، ما قدره من خلق خليفة يسكن الأرض، ويحاورونه سبحانه، ويحاورهم حتى تنتهي المحاورة بإقرارهم بعظمة الله تعالى، وبعلمه المحيط الذي يشمل ما يبديه الملائكة وما يكتمون.

وبهذه المحاورة يتقرر الدرس الأول الذي يريد الله تعالى أن يعلمنا إياه، وهو أن تكون المحاورة طريقنا في الوصول إلى الحق وإظهاره، ومن ثم فلا مكان لقهر الآخرين وإكراههم على الرضوخ لرأى ما، تسلطاً وقهراً لأن صاحب الرأي يملك السلطة والقدرة على قهر غيره، ثم يتأكد الدرس في بقية القصة، عندما نرى أن الله تعالى لا يحاور ملائكته فقط، وإنما يحاور إبليس الذي رفض أمر الله تعالى، وأبى الخضوع والامتثال كبراً، ومع ذلك يحاوره ويستطلع رأيه، وكي يظهر سبب رفضه السجود عندما أمره الله تعالى، ويتمادى إبليس في موقفه، ويحاور ربه مبيناً أنه يرى نفسه أفضل من آدم، بسبب العنصر الذي خلقه الله منه، والذي يراه فوق العنصر الذي خلق منه آدم، وقد بين الله تعالى لإبليس خطأ موقفه، وفساد قياسه، إذ أنه خالف أمر ربه، أيا كانت العناصر التي خلق منها هذا أو ذاك.

ومن حوار الله تعالى مع ملائكته، وحواره مع إبليس نستخلص الدرس والعبرة، إن الله تعالى يريد أن يربي ذرية آدم ، ويعلمهم أن يستجيبوا لأمر الله إذا أمرهم، وأن يتحاوروا فيما بينهم فيما يستغلق عليهم من أمور، حتى يهتدوا لأرشد أمورهم، وقد تأكد هذا الدرس من خلال محاورة الله تعالى للكافرين، مورداً هذا الحوار في كتابه الكريم، عارضاً آراءهم ومواقفهم، ثم ناقشهم فيها ورد عليهم، ودعاهم إلى إتباع المنطق في الحوار والبعد عن التعنت، ومواقف الجمود على ما ورثوه عن الآباء والأجداد.

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٣٠.

وقد كان رسولنا الكريم محمد ﷺ يحاور أصحابه ويناقشهم في القضايا المختلفة التي تعـــرض لهم وقد سجل القرآن طرفاً من هذا الحوار ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[1].

وعليه فإن الحوار بين أصحاب المواقف المختلفة، ينبغي أن يعتمـــد طريقـــاً وحيـــداً للوصول إلي اتفاق الكلمة، أو تمحيص المواقف، فالحوار بين الحاكم والمحكوم، وبين الآبـــاء والأبناء، والرؤساء، والمرؤوسين، وبين أصحاب الرأي من العلماء والفقهاء، بل بـــين الرجـــل وزوجته، والأخ وأخيه، هو الوسيلة المثلى للوصول إلى تحديـــد المواقـــف، والاهتـــداء إلـــى الطريق القويم، دون إكراه أو قهر أو تسلط.

إننا في أمس الحاجة على الاستفادة من هذا الدرس الذي تقدمـــه لنـــا قصـــة آدم عليه السلام، وذلك باعتماده في مناقشة قضايانا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، حيـــث أنـــه الطريـــق الصحيح والذي قامت عليه الحضارة الإسلامية الزاهرة، عندما قامت على المحاورة، وأرقـــى درجات المناظرة واحترام كل فريق لرأى الفريق الآخر، دون مصادرة لرأى الآخرين.

إن الحوار هو أقصر الطرق للوصول إلى الحق، وتوحيد الكلمة، وما الشـــورى التـــي كلفنا الله تعالى بممارستها في كل شئون حياتنا ــ جليلها وحقيرها ــ إلا جانب مـــن جوانـــب الحوار الذي علمنا الله تعالى إياه من خلال قصة آدم عليه السلام .

---

(١) سورة المجادلة الآية رقم ١.

الدرس الثاني
حقيقة وجودنا في الأرض: ما هي؟

من أول حديث لله تعالى عن آدم، تتضح لنا حقيقة وجودنا في هـذه الأرض، ودورنا فيها، والمهمة التي ندبنا لأدائها ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] لقد تقررت خلافة آدم عليه السلام ربه في أرضه، قبل خلقه وتصويره، والنفخ فيه من روحه، والقي بهذا القرار إلى ملائكته، وعليه فإن دورنا كذرية لآدم أن نقوم بأعباء الخلافة، وهى تعمير أرض الله تعالى بمنهج الله تعالى، ولكي نقوم بهذا التكليف، فلا بد أن يسبق ذلك تزويدنا بمقومات أداء مهمتنا، فكان أن خلقت الأرض من قبل، مهيأة لاستقبال الخليفة، وزود الخليفة بموهبة العلم والمعرفة والملكات والقدرات التي تمكن من الوفاء بما كلف به ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[2] أما أن الأرض خلقت من قبل مهيأة لاستقبال الخليفة، فقد جعلها الله تعالى مذللة، وجعل كل ما فيها وما عليها مسخراً لهذا المخلوق المكرم.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[3] ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[4] ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[5].

فكل ما في الأرض، مملوك لهذا الإنسان تفضلاً عليه من خالقه، ومن هذه الكلمات الجامعة نستطيع أن نقف على ما تفضل الله به على عباده من ناحية وعلى علاقتهم بهذا المتفضل به من ناحية ثانية، وعلى الهدف من استخلافنا من ناحية ثالثة.

إن الذي تفضل به سبحانه وتعالى على ذرية آدم عليه السلام هو كل ما في الأرض، بل وكل ما في السماء. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾[6] الكل في

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٣٠.

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٣١.

(٣) سورة الملك الآية رقم ١٥.

(٤) سورة البقرة الآية رقم ٢٩.

(٥) سورة البقرة الآية رقم ٣٧، وسورة الأعراف الآية رقم ٢٤.

(٦) سورة الجاثية الآية رقم ١٣.

خدمة هذا المخلوق المكرم، إما بطريقة مباشرة كما هو الحال في موارد الأرض، وإما بطريق غير مباشر كما هو الحال فيما هو في السماء من شموس وأقمار بل وملائكة يحفظون ويستغفرون، إلى غير ذلك مما نعلم ومما لا نعلم .

وإذا كان ما تفضل الله به على من خلق بيديه، بهذا الحجم مما في السماوات والأرض، فمن العجب أن نوصف موارد الله تعالى المتفضل بها بالندرة، إنها ليست كذلك قطعاً، بل هي وفيرة وفيرة وفيرة ﴿وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾[1] ويؤكد هذه الحقيقة عن الموارد قول الله تعالى عن الأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾[2] ونتبين بوضوح خطأ بناء علم الاقتصاد على فكرة الندرة كما يقول الفكر الوضعي، والصواب أن الاقتصاد الإسلامي يقوم على فكرة الوفرة.

أما المتفضل عليه بكل هذا الحجم من الموارد في الأرض والسماء فهم آدم وذريته جميعا، إنهم الجنس البشرى كله، فهذا هو المستفاد من قوله تعالى ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ومن ثم فيجب أن ينال كل فرد منهم نصيباً عادلاً من هذه الموارد، إما عن طريق جهده إن كان قادراً. وهذا هو الأصل ــ وإما عن طريق التكافل بين أبناء آدم، إذ هم أعضاء جميعاً في الشركة الأزلية التي أقيمت يوم أن تفضل الله على البشرية بتمليكها الموارد التي خلقها كلها للجميع، وليس لفئة دون فئة أو جماعة دون جماعة، ومن ثم فإن الناتج القومي في المجتمع يجب أن يوجه لسد حاجة الجميع، وعلى الدولة أن تنظم هذه العملية حتى لا يحرم فرد من نصيبه الأزلي الذي خلقه الله له، فالتوزيع العادل للناتج القومي تكليف أزلي في كل مجتمع، وكل تجمع، وسوء التوزيع إن وقع يقود إلى ضنك المعيشة بطريقة مباشرة للذين حرموا من نصيبهم العادل وبطريقة غير مباشرة للذين استأثروا واستحوذوا على أكثر من نصيبهم ومنعوا حق الله تعالى في أموالهم، إذ أنه جانب من الإعراض عن ذكر الله تعالى ورفض للهداية التي جاءت بها رسل الله تعالى منذ آدم إلى محمد عليهم صلوات الله وسلامه، وقد تقرر كما سنعرف أن من أعرض عن ذكر الله فجزاؤه المعيشة الضنك وأن يحشر يوم القيامة أعمى، لا يهتدي إلى طريقه ولا يصل إلى مقصوده.

وإذا تقرر أن حقيقتنا على الأرض أننا مستخلفون فيها، فلماذا كان هذا الاستخفاف؟ وما هي مهمة الكائن المستخلف؟.

---

(١) سورة إبراهيم الآية رقم ٣٤.

(٢) سورة فصلت الآية رقم ١٠.

إن إجابة هذه التساؤلات تكفلت بها آية من كتاب الله تعالى تقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1] أي أن عبادة الله تعالى هي مهمة هذا المستخلف، وهي التي من أجلها خلق، بيد أن العبادة يجب أن تفهم على حقيقتها، فهي ليست مقصورة على الشعائر، وإنما تشتمل على التكاليف والمهمات المطلوبة ، قياماً بواجب الخلافة، إنها وكما جاء في آية أخرى عمارة الأرض ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[2] فعمارة الأرض جانب من العبادة التي خلق من أجلها الإنسان.

ومن ثم نستطيع أن نجمل مهمة الكائن المكرم المستخلف في عبادة الله تعالى وهي التي تشمل إلى جانب الشعائر حركة الإنسان في الحياة على هدى الله تعالى، وهي تضم ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض، والتعرف على قواها وطاقاتها وذخائرها ومكوناتها، واستخدام كل ذلك لتحقيق منهج الله في الأرض، والتوجه إلى الله بكل سعى حتى لتكون الشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، كلها عبادة وكلها أجزاء من الوظيفة التي خلق لها لبشر، وكلها يحقق مهمة الخلافة عن الله تعالى وحتى يتبدى لنا صدق القول الشائع «العمل عبادة والعبادة عمل» إن تجلية هذه المفاهيم وتلك الدروس، وتوضيحها للناس أمر حيوي في مسيرة شعوبنا حتى تدرك المسئولية الملقاة على عاتقها، وتؤدى الأمانة التي حملتها، وتنهض بالأعباء الثقال التي يتطلبها تحقيق النمو والتقدم، واحتلال المكان اللائق بأمة كتبت في سجل الحضارة صفحات مضيئة.

(١) سورة الذاريات الآية رقم ٥٦.

(٢) سورة هود الآية رقم ٦١.

الدرس الثالث

العلم أداة تطوير الحياة في المجتمع

بعد قرار الخلق الذي تم لآدم عليه السلام، كانت المواهب التي ميزت هذا المخلوق المكـرم، تدور حول العلم الذي آتاه الله سبحانه له، عندما علمه الأسماء كلها ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَـمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[1].

لقد تكررت مادة العلم ومشتقاتها في هذه الآيات الثلاث ست مرات، وكان العلم الـذي أوتيه آدم عليه السلام ميزته التي أظهر الله بها فضله، وسبب تكريمه، وصلاحيته للمهمة التي خلقـه الله من أجلها وهى عمرة الأرض بمنهج الله تعالى، فالعلم إذاً هبة مـن الله لبنـي آدم وهـو الفضيلة التي فضلوا بها، وهو الأداة التي سيستخدمونها في أداة مهمتهم علـى ظهـر الأرض، بعمارتها وبناء الحياة فوقها. إن العلم هو السلاح والقدرات التي جعلـت بنـى آدم صـالحين وقادرين على عمارة الأرض.

إن العلم هو ميراث البشرية من أبيها آدم (ولحكمة جليلة ومغزى عميق لم يكن الأنبياء يورثون إلا العلم) ومن يفرط في هذا الميراث ويضيعه، يصبح غير صالح لأداء مهمته علـى ظهر الأرض، ويخرج من التاريخ، ويصبح كماً مهملاً في دنيا البشر.

والدرس المستفاد هنا يتمثل في أن الشعوب التي تعجز عن القبض على أزمـة العلـم وتطبيقاته، لن تكون قادرة على الإسهام في عمارة الأرض، وتحقيق رسالة الإنسـان عليهـا. فضلاً عن أن ذلك يمثل كفراناً بنعمة كبرى من نعم الله تعالى، وهى نعمة امتلاك قدرات التعلم والبحث، وتركيم المعرفة، وتطوير الحياة على الأرض.

---

(١) سورة البقرة: الآيات ٣١-٣٣

الدرس الرابع
آدم وبدء صناعة الملابس

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾(١)، كما يقول سبحانه: ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾(٢).

والمعنى في الآيتين أن آدم ﷺ وزوجه «طفقا» أي أخذا «يخصفان» أى يجعلان الورق بعضه على بعض، ليكونا منه ساترا لعورتيهما. وهما بهذا يكونان قد وضعا اللبنة الأولى في صناعة الملابس، وأن هذا مما علمه الله تعالى لآدم ضمن ما علمه عندما قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(٣)، إذ تعليم الأسماء غير مقصور على معرفة المسميات وإنما يشمل من بين ما يشمل التعرف على أصول الصناعات، وامتلاك ملكة الابتكار والاختراع، فعندما أدرك آدم وزوجه أنهما في حاجة إلى ستر العورة التي بدت لهما، ولم تكن بادية قبل الأكل من الشجرة، لجأ آدم ﷺ إلى المَلَكة التي آتاه الله إياها وسارع إلى تكوين وتشكيل ما يستر به عورتيهما، وكان ورق الشجر المحيط به هو أيسر الوسائل المتاحة وأقربها، ويشبك بعضه ببعض، كأنه يخرز بالمخرز، أو يخصف بالمخصف، وفى النهاية تكون لديه رداء يستر العورات.

لقد كانت هذه أول محاولة لصناعة الثياب، قام بها آدم وزوجه ثم تفتقت عقول ذريته عن شتى أنواع الثياب، بفتح من الله تعالى الذي أعطى البشر هذه الملكات، يقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾(٤).

والدرس المستفاد هنا – فضلا عما سنقرره من قبل من أن ستر العورة أمر فطرى تجب مراعاته– أن صناعة اللباس والثياب بدأت أصولها على يد آدم ﷺ ، ثم تطورت وتقدمت على يد الأجيال المتعاقبة من أبنائه الذين أعطاهم الله ملكة الصناعة، ومكنهم من

(١) سورة الأعراف: الآية رقم ٢٢.

(٢) سورة طه: الآية رقم ١٣١.

(٣) سورة البقرة: الآية رقم ٣١.

(٤) سورة الأعراف: الآية رقم ٢٦.

استخدام مواد الأرض المناسبة في صناعة اللباس من ورق الشجر أولا ثم من الجلود ثم من الألياف المختلفة ثم من المخلقات الصناعية أخيراً.

ولم تعد الثياب لضرورة ستر العورة كما بدأت، وإنما أضيف إلى ذلك غرض مشروع هو الزينة والجمال، وكل ذلك متضمن في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[1].

إن صناعة الملابس إذاً ميراث عن أول صانع لها وهو آدم عليه السلام ، والعناية بها وتجويدها، واتخاذها زينة وجمالا في المحافل والمجامع والمساجد مدعو إليه ومطلوب، ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[2]، وعلى المجتمع أن يهتم بهذه الصناعة ويوفر منها ما يسد الحاجة إليها باتخاذها وسيلة للحشمة والوقار والجمال.

---

(١) سورة الأعراف: الآية رقم ٢٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية رقم ٣١.

الدرس الخامس
الأخلاق السيئة تورد موارد الهلاك

من ثنايا قصة آدم عليه السلام وتلافيفها الكثيرة، يخبرنا الله تعالى عن خلق سيئ يحذرنا من ممارسته، هذا الخلق ق. قاد إبليس إلى الخروج والفسق عن أمر ربه، فأورده ذلك مورد التهلكة، وتردى بسببه في النار خالداً مخلداً، هذا الخلق الردئ هو الكبر، الذي نهانا الله تعالى عنه، وحذرنا سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه منه، حتى قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[1]. وقد شرح لنا صلوات الله وسلامه عليه مضمون الكبر فقال: الكبر بطر الحق وغبط. الناس[2]، فمن ينكر الحق فهو متكبر، ومن يغمط الناس أقدارهم فهو متكبر وحق عليه عقاب، المتكبرين.

وإبليس عندما رفض السجود لآدم تحقيقاً لأمر الله تعالى، إنما كان عالياً من المتكبرين ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾[3]، لقد بطر الحق، وغمط آدم قدره ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾[4]، ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[5] فجمع بين عنصري الدّبر اللذين ذكرهما النبي ﷺ ، وحق عليه أن يوصف بنقيض ما أدعى ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[6].

إن الكبر يفسد العلاقات في المجتمع، ويوهن الروابط التي ينبغي أن تجمع بين الناس، وإذا انتشر الكبر في مجتمع ما، فقد هان المجتمع على الله، وأوشك أن يناله ما نال المتكبرين على مسار التاريخ الإنساني وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «لينتهين رجال عن الفخر بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»[7].

---

(١) رواه مسلم، رقم ٢٦١، ٢٦٣، ج٢، ص٢٧٤ كتاب الإيمان.

(٢) المرجع السابق، نفس الحديث.

(٣) سورة ص: الآية رقم ٧٥.

(٤) سورة الإسراء: الآية رقم ٦١.

(٥) سورة ص: الآية رقم ٧٦.

(٦) سورة الأعراف: الآية ١٣.

(٧) سنن أبي داود، كتاب الأدب جـ٢، ص٧٥٢.

الدرس السادس
إتباع الشهوات مؤشر لهبوط المجتمعات

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾(١)، نسى آدم عليه السلام عهده مع الله سبحانه فأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها وعصى ربه سبحانه، ولما أدرك ما وقع فيه، سارع إلى التوبة، ونادى ربه بكلمات علمه إياها ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢)، واستجاب الله له واجتباه وهداه.

وهكذا يتقرر في أول تجربة للإنسان مع تكاليف ربه سبحانه يتقرر أن الخطأ من طبيعة البشر، ويتقرر في نفس اللحظة الحقيقة المصاحبة لذلك، وهي أن الإنسان مخلوق مكرم ومحل عناية ربه، ورحمة الله تعالى منه قريبة، إذ علمه كيف يرجع إلى ربه إن أخطأ، ووعده المغفرة والصفح إن هو رجع إلى ربه وأناب ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾(٣)، وصدق رسولنا الكريم: «كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

هنا درس من أهم الدروس التي نستخلصها من قصة آدم عليه السلام، تستفيد منه ذريته التي تسير على المنهج الذي جاءها من ربها. ومفاد هذا الدرس، أن الذي هبط بآدم وزوجه، إنما هو الضعف الذي ظهر منهما أمام شهواتهما وعدم قدرتهما على ضبط سلوكهما وفقاً لأمر الله تعالى، ذلك أن من شهوة الإنسان أن يبقى مخلداً، وأن يكون ذا سلطة وسيطرة، ومن هذا المدخل دخل عليهما إبليس ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾(٤) إن الذي نزل بآدم عليه السلام من المكانة التي وضعه الله فيها، هو عدم سيطرته على شهواته وإتباعه إياها.

وتصبح القضية ملخصة في أن إتباع الشهوات أو ضبطها هو المعيار الذي يرتفع به الإنسان أو ينخفض، إن ضبط شهواته على هدى الله تعالى، وتعالى عليها ارتفع إلى أعلى الدرجات، وإن ضعف أمام شهواته، ولم يتمكن من السيطرة عليها هبط إلى أسفل، ينطبق ذلك

---

(١) سورة طه: الآيات رقم ١٢١-١٢٢.
(٢) سورة الأعراف: الآيا رقم ٢٣ .
(٣) سورة الزمر: الآيات رقم ٥٣-٥٤.
(٤) سورة طه: الآية رقم ١٢٠.

على الفرد كما ينطبق على المجتمع، فالمجتمعات التي تطلق العنان لشهواتها، ترتكس وتهبط، والمجتمعات التي تضبط سلوكها ترتفع وتعلو.

وما نشاهده اليوم في المجتمعات المختلفة -ومن بينها مجتمعنا- من إطلاق العنان للشهوات والانفلات من كل الضوابط مؤذن بتقويض أركان المجتمع، وما لم يتدارك الأمر بالأوبة إلى الله تعالى، وترديد الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه، في توبة صادقة من المجتمع كتوبة آدم، فإن المآل هو الخسران.

﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١].

(١) سورة الأعراف: الآية رقم ٢٣.

الدرس السابع

الحياء خلق فطرى وشعبه من الإيمان

من أهم الدروس المستفادة من قصة آدم عليه السلام ، أن الحياء من التعري وانكشاف السوأة، أمر فطرى، مركون في النفس البشرية عندما خلقها الله تعالى ممثلة في آدم عليه السلام وزوجه، حيث شاهدناهما عندما بدت لهما سوأتهما، يسارعان إلى سترها بخصف أوراق الشجر، وجعلها ساتراً لعورتيهما ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾(١).

وقد كان انكشاف السوآت من آثار وسوسة الشيطان لهما حتى إن القرآن الكريم ليصفه في سورة الأعراف بأنه يقوم بعملية نزع مادية للباسهما ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾(٢)، ومن ثم فإن الحشمة والحياء من التعري، تمسك بالفطرة التي فطر الله عليها آدم عليه السلام وزوجه وبنيه من بعده، والتعري هو استجابة لغواية الشيطان، وخضوع له، وتحقيق لوعيده لبنى آدم ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(٣). ويكون الذين يسخرون أقلامهم، وأجهزة إعلامهم، وألسنتهم، وسائر جهودهم، لتعرية الجسم من اللباس، ومن الحياء من الله والناس، إنما يريدون ويحققون سلب الإنسان خصائص فطرته التي فطره الله عليها، وإسلامه للشيطان، وما أراده لأبوينا من قبل، من نزع لباسهما، وكشف سوآتهما، وهم في سعيهم لذلك إنما ينفذون مخططات صهيونية، ترمى إلى تدمير أخلاق الشعوب، ومقوماتها، وإشاعة الانحلال فيها، حتى يسلس قيادها لبنى صهيون، بغير مقاومة، جراء فقدها مقوماتها وقيمها وأخلاقها.

إن رؤية العرى جمالا هو انتكاس في الفطرة، وسلوك آدم وزوجه، وتعليمات النبيين، تنتشل البشرية من انتكاسها، وتستنقذها مما يدبرٍّ لها أعوان الشيطان.

إن قضية حجاب المسلمة، ومحاولة نزعه عنها، ليست إلا صورة خبيثة، لما قام به إبليس – لعنه الله – من قبل، وليست إلا محاولة جديدة من أتباع الشيطان، وأعداء الفطرة.

---

(١) سورة الأعراف: الآية رقم ٢٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية رقم ٢٧.

(٣) سورة ص: الآيات رقم ٨٢-٨٣.

تجئ قصة آدم ﷺ لتذكرنا بخبث هذه النوايا، وشناعة الدعوة إلى التعري الجسدي من اللباس والتعري النفسي من القيم والأخلاق، تلك الدعوة التي تسخر لها شتى الأجهزة، تنفيذاً لمخططات خبيثة، واستجابة لغواية الشيطان ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

ويا ويل من كان عدوه وليه، فلا محالة سيورده موارد التهلكة، وليت العرب يفطنون ويدركون إلى من ألقوا بمقاليد قيادتهم، ومن حكّموه في شئونهم، ومن جعلوه حكماً بينهم وبين عدوهم، وماذا يفعل بهم.

إن قضية اللباس والأزياء ليست منفصلة عن شرع الله ومنهجه للحياة، وإنما هي مرتبطة بهما أشد الارتباط منذ آدم ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي أحد ميادين الصراع بين المؤمنين وشياطين الإنس، الذين جعلوا أنفسهم أبواقاً لشياطين الجن.

(١) سورة الأعراف: الآية رقم ٢٧.

الدرس الثامن
الأخوة البشرية واجبة المراعاة

حدثنا القرآن الكريم عن أصل نشأتنا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[1]. وقال سبحانه في ذات القضية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]. ويقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: «أيها الناس إن أباكم واحد وإن ربكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب»[3]، في الآيتين وفى الحديث يأتى نفس النداء الواحد، لكل الناس، مؤكداً أنهم خلقوا من نفس واحدة هي آدم عليه السلام وأن بينهم – بناء على ذلك– رحما لابد من صلتها، وأنهم في حقيقة الأمر أخوة لأب واحد وأم واحدة.

هكذا يأتى النداء عالياً مقرراً الأخوة بين البشر، لا فرق بين أبيض وأسود، وغنى وفقير، لا فرق بين شعب وشعب، ولا بين قبيلة وأخرى، وأن التفاضل سيكون بناء على الموقف من هدى الله تعالى ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾[4] .

هذه الأخوة ليست قضية نظرية يحتفظ بها في عالم المثل، وإنما هي حقيقة تصاغ على أساسها النظم والتشريعات والتوجيهات. فالمال يجب أن يكون دولة بين الجميع ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾[5]، والحقوق والواجبات والأمن والسلام يستوي فيها الجميع ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾[6]، «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» فمن آذى ذمياً فقد آذى الله ورسوله، ومن يلمز الناس أو يتجسس عليهم، أو يغشهم أو يكذب

(١) سورة النساء: الآية رقم ١ .

(٢) سورة الحجرات: الآية رقم ١٣.

(٣) متفق عليه.

(٤) سورة طه: الآيات رقم ١٢٣، ١٢٤.

(٥) سورة الحشر: الآية رقم ٧.

(٦) سورة المائدة: الآية رقم ٣٢.

عليهم، أو يخونهم أو يسرقهم، أو يغتصبهم حقوقهم أو يعطل مصالحهم إنما يعتدي على قانون الأخوة الذي يقضي في الإسلام بأن يحب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه[1].

ويزداد الجرم شناعة، عندما يمارسه من وضعت في أيديهم مقاليد الأمور من الرؤساء وأصحاب المسئوليات العامة.

إن الأخوة الإنسانية حقيقة تلقيناها من اشتراكنا في الانتساب لشخص واحد هو آدم عليه السلام، وعلينا أن نتقى الأرحام التي تجمعنا، فلا نمارس العدوان أو الطغيان، ولا يبغى أحد على أحد ولا قوم على قوم، ولا شعب على شعب، فذلك مناقض لمبدأ الأخوة الإنسانية.

(١) حديث صحيح لفظه «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

الدرس التاسع

السنة الإلهية فيمن يتبع الهدى وفيمن يعرض عنه

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾(١).

هذه هي التوصية الأساسية لآدم عليه السلام وبنيه من بعده عندما أهبطه الله إلى الأرض ليقوم بدوره كخليفة، كانت التوصية في شكل سنة إلهية لا تتبدل ولا تتحول وتنطبق لا محالة إذا تحققت مقدماتها، من يتبع الهدى الذي يأتيه من الله على يد أي من رسله، فلن يضل ولن يشقى، ومن يعرض عن هذا الهدى فإن له ضنك المعيشة في الدنيا، وعدم الاهتداء والعمى في الآخرة، ﴿وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾(٢)، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾(٣).

على أساس من هذه السنة ستكون معاملة الله تعالى لذرية آدم عليه السلام ، في أجيالها المتعاقبة، من يسر على منهج الله تعالى يقوده إلى السعادة في الدنيا والآخرة، يعيش في الدنيا حياة طيبة، يظللها العدل ويغلفها التكافل والتراحم، ويسودها الإيثار والمودة، ويفوز الناس في ظلها بخيرى الدنيا والآخرة، ويحوزون عاجل الخير وآجله. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾(٤)، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾(٥).

هذه هي سنة الله في جانبها الأول، جانب إتباع المنهج الإلهي، والسير عليه، وتعظيم الله تعالى وتوقيره، واللجوء إليه في السراء والضراء، والعيش في كنفه، والتمسك بهديه.

---

(١) سورة طه: الآيات من ١٢٣-١٢٧.

(٢) سورة الإسراء: الآية رقم ٧٧.

(٣) سورة الأحزاب: الآية رقم ٦٢.

(٤) سورة الأعراف: الآية رقم ٩٦.

(٥) سورة المائدة: الآية رقم ٦٦.

أما الإعراض عن الهدى -عندما يأتي البشر من ربهم- فإن عواقبه وخيمة، إنها المعيشة الضنك في هذه الدنيا، المعيشة التي يظللها الخوف ويكتنفها الشقاء من كل جانب، المعيشة التي توغل في الضلال على شتى المستويات، المستوى الاقتصادي حيث ينخر الربا في اقتصادها، والمستوى الاجتماعي حيث ينخر التحلل والتفسخ في جذورها وكيانها، والمستوى الثقافي حيث ينخر الكذب والنفاق والرياء والتضليل في مقوماتها، فيحيل الحياة إلى جحيم لا تصلح به حياة ولا تستقيم معه أحوال، والمستوى التشريعي حيث ينخر الهوى والظلم في مؤسساتها، وتغيب العدالة عن شئونها، فيتظالم الناس، ويأكل بعضهم حقوق البعض، وعلى المستوى السياسي، حيث تغتصب السلطة وتستلب الحقوق، ويوسد الأمر إلى غير أهله، فيقرب الفاجر ويمكن، وينفى التقي ويبعد. وعلى المستوى الأخلاقي، حيث تنقلب المعايير الخلقية، ويهزأ بالقيم فيؤمن الخائن، ويخون الأمين، وعلى كل المستويات يظهر الفساد، في البر والبحر، في الأنفس والمجتمع، في النظم والتشريعات، ذلك أن الناس ضلوا عن المنهج، وتنكبوا الطريق القويم وتخلوا عن الهدى الذي جاءهم من الله تعالى، فحقت عليهم السنة الإلهية التي قررها الله تعالى في وحيه إلى آدم ﷺ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ فالإعراض عن هدى الله تعالى في الحكم والاقتصاد والاجتماع والمعاملات وسائر المجالات، هو الذي يقود الأمة إلى التبعية والذل والهوان سياسياً، وإلى الضنك وسوء الأحوال اجتماعياً، وإلى ضعف الإنتاج وارتفاع الأسعار وانخفاض مستوى المعيشة اقتصادياً، وإلى التفسخ والتحلل والتميع والغش والخداع والتطفيف وأكل أموال الغير بالباطل، وبخس الناس أشياءهم أخلاقياً.

تلك سنة الله تعالى علمها آدم وبنيه من بعده، تنطبق عليه وعليهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا، وإن الواقع الذي يحيط بنا – وقد أعرضنا عن هدى الله تعالى، في الحكم والاقتصاد والتشريع والأخلاق وغيرها- ليشهد بانطباق السنة على الأمة العربية اليوم، تلك الأمة التي عزت من قبل، وعاشت حياة طيبة عندما أقامت الصلاة وآتت الزكاة، وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، ثم فرطت في الهدى الذي أعطى لها من ربها فحقت عليها السنة التي لا تحابى ولا تتحول ولا تتبدل، وتحولت أحوالها من النقيض إلى النقيض عما كانت عليه من قبل. ولقد صدق سيدنا عمر ﷺ عندما قال مستلهماً هذه السنة الإلهية: «نحن قوم أعزنا الله

بالإسلام فإذا ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله، ولن يرفع عنا ما نحن فيه إلا إذا عدنا إلى الهدى الذي جاءنا من ربنا على يدي آدم عليه السلام من قبل ومحمد ﷺ أخيراً».

إن الشقاء الذي نفته الآية الكريمة عمن يتبع هدى الله، سيصيب من يعرض عن هذا الهدى، فهو ثمرة الإعراض لا محالة يجنيها المعرض عن ذكر ربه، ولو كان غارقاً في متاع الدنيا، فما يضل الإنسان عن هدى الله تعالى إلا ويتخبط في القلق والحيرة ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[1]. ولن تستقر نفس العبد وتطمئن إلا في رحاب الله تعالى، وإتباع هداه.

إن بناء الإنسان في مجتمعاتنا المخربة اليوم، والإصلاح والتحديث الذي تلوكه الألسنة اليوم، يجب أن يقوم على أسس تكفل العودة إلى الله تعالى، وإتباع هداه. إن مجتمعاتنا إذا انقطعت عن سند القوة الكبرى، قوة الله تعالى، ستأكلها القوى المسيطرة على الأرض اليوم، من دول كبرى، وشركات كبرى، وأحلاف كبرى، تريد فرض القيم المعكوسة، والمصطلحات المغلوطة، والأوضاع المقلوبة، ونحن لا نملك لشئ من هذا رداً، إثر تفريطنا في جنب الله، وفقدنا له كسند.

إننا عندما نتصل بالقوة الإلهية، ونتبع هدى الله سنقف لهذه الغيلان الكبرى من دول وشركات وأحلاف، أو على الأقل سنكون عنصراً فاعلاً في الصراع معها، ولا نكون مسلوبي الإرادة أمام مخططاتها، التي ترمى إلى تفتيتنا، وسلب قيمنا، تمهيداً للقضاء علينا. إن هذه القوى ما سلطت علينا إلا كنوع من العقوبة جراء إعراضنا عن هدى الله تعالى، وسترفع العقوبة إذا عدنا إلى حظيرة الله تعالى، وجنابه الذي لا يرام.

فهل من مستجيب؟!!

(١) سورة البقرة، الآية رقم ٢٧٥.

الخاتمة

في نهاية هذا التطواف في قصة سيدنا آدم عليه السلام في خلقه وابتلائه، وإنابته إلى ربه واجتبائه، ثم إهباطه إلى حيث يؤدى المهمة التي خلق لها، مصحوبا بالمنهج الذي يسير عليه مُحَذَّراً من الشيطان الذي يكن له ولذريته العداوة والبغضاء ويتوعدهم بالغواية والإضلال، وقفنا من خلال ذلك على عدد من الدروس التي تحتاج البشرية اليوم إلى تمثلها، والاهتداء بها إذ هي ميراثها عن أبيها آدم عليه السلام .

وأهم ما تحتاجه البشرية عامة، والمسلمون منهم خاصة:

١- أن يتمثلوا الأخوة التي تربط بينهم، وأن يتصرفوا على ضوئها، وأن ينبذوا الصراع، ويتخذوا من الحوار وسيلة لحل خلافاتهم ومناقشة قضاياهم.

٢- أن يعلوا من شأن القيم والأخلاق، ولاسيما خلق الحياء الذي هو خير كله، والذي هو بعض ما أدركه الناس من سلوك النبوة الأولى، والذي تكاد البشرية في أنحاء الأرض أن تتخلى عنه وتهجره وتجافيه، وترتكس في حمأة الفحش والفجور، متبعة في ذلك خطوات الشيطان.

٣- أن يدركوا المهمة التي خلق من أجلها الإنسان، وأن لا يفسقوا عن أمر ربهم، وأن لا يعاندوا سننه سبحانه.

٤- أن يستخدموا العلم الذي من الله به عليهم في بناء الخير وتحقيق النفع وعمارة الأرض، وأن يبتعدوا بهذه النعمة عن الاستخدامات الضارة التي تتناقض مع مهمة الإنسان في تعمير الأرض، وإقامة الحياة الطيبة على ظهرها.

٥- أن يتنبهوا للسنة الإلهية في الاستجابة لأمر الله والإعراض عنه فهي سنة ماضية إلى يوم القيامة ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين